وعلى ذلك ايضًا لا يبقى وجهٌ للمسألة التي اشكلت على فلاسفة القدماء ونعني بها ما اذا كان الناس اخبارًا او اشرارًا بالطبع او كان بعضهم اخيارًا وبعضهم اشرارًا بالطبع كما بنحج بامعان النظر وشرحهُ يطول فلا نتعرّض لهُ

وعلى ما تقدم ايضًا يثبت ان التأديب والتعليم والوعظ وحسن السياسة تلطف الطباع وتقوم الاخلاق وانهُ يمكن بها اضعاف الاخلاق الشريرة وتقوية الاخلاق الصالحة وتأصيل الفضائل في النفوس واستئصال الرذائل منها

لغة الكلاب والطيور

فقالوا لقد هرّت بليل كلابنا فقلنا أذئبٌ عسّ ام عسّ فرعلُ
فلم يكُ الاّ نبأةٌ ثم هوّمت فقلنا قطاةٌ ربع ام ربع اجدلُ

قلنا في مقالة سابقة انهُ لو كان النطق مقدورًا للحيوان الاعجم لتعلّم النطقَ من الانسان بعد ان رافقهُ وساكنهُ الوفًا من السنين . ومعلوم ان الكلب ينبح ويهرُّ وهو يريد بالنباح شيئًا وبالهرير شيئًا آخر حتّى ان عرب البادية يعلمون ذلك كما قال الشنفري في البيتين الذين اوردناهما في صدر هذه المقالة وهما من لاميتهِ المشهورة بلامية العرب فقد عنى بهما انهُ بات قومًا وكان من الخفّة والمهارة على جانب عظيم فهرّت الكلاب عليهِ قليلاً ثم نامت كانها لم تشعر بهِ الاّ شعورًا خفيفًا فقال اصحابها لما هرّت ان ذئبًا او ضبعًا طافت بحلتهم ثم لما نامت حالاً قالوا بل ربعت قطاة او ربع صقر الاّ ان ذلك لا يرد على القول المتقدم وهو ان النطق غير مقدور للحيوان الاعجم لانهُ ليس نطقًا صريحًا

وقد اطلعنا في هذه الاثناء على مقالة ضافية الذيول للموسيو ده لاكاز دوتيه احد اعضاء الانستيتو الفرنسوي ذهب فيها الى ان تغير اصوات الكلاب وقت نباحها وهريرها والطيور وقت صياحها ونقريدها يدلُّ دلالةً واضحة على ان لها لغة تخاطب بها واورد على ذلك نوادر كثيرة شاهدها بنفسهِ او نقلها عن الثقات فلخصناها عنهُ تاركين الحكم فيها لحضرات القراء

قال ان الكلب اذا قابل صاحبهُ اظهر لهُ ارتياحهُ وسرورهُ باصوات يختلف نغمها باختلاف شدة فرحهِ وما من احد يخفى عليهِ التمييز بين هذه الاصوات واصوات الكلب اذا كان ينبح على متسوّل او اذا كان يطارد كلبًا آخر . واذا سمع الكلب نباح كلب آخر ليلاً في بلاد الريف اجابهُ اولاً بالهرير فيهر مرتين او ثلاثًا ويصغي الى صوتهِ ويهرُّ ايضًا او ينبح

ويتظران يجاب صوته ويعوي في آخر النباح عواء طويلاً يزيد انخفاضاً رويداً رويداً الى ان ينقطع ويرفع رأسه حينئذٍ وينظر الى ما وراءه

وكثيراً ما ينبح كلب فيجيبه آخر فيصمت الاول الى ان يتم الثاني نباحه ثم ينبح الاول ويجيبه الثاني ويتعاقبان النباح مدة على هذه الصورة كأنهما يتخاطبان او يتناظران

وكنا مرة في مكان اسمه بر يغور نوار وكان عندنا ثلاثة كلاب لحراسة المنزل كلب صغير وكلب كبير وكلبة وكان الفصل شتاء فسمعنا هذه الكلاب تنوقوق نحو منتصف الليل كما تنوقوق حينما تضرب واسرعت كلها نحو باب الدار. وسألنا الجيران عن سبب وقوفها فقالوا لنا ذئب مرّ امام الدار ولا بدّ من ان يعود. فاستيقظنا في الليلة التالية على صوت الكلاب وفتحنا نافذة تطلّ على باب الدار فرأينا الكلاب داخلة قافلة مضطربة وامامها وحش رابع اصهم اللون يهجم عليها وهي لا تكاد تقوى على دفعه عنها. والظاهر ان هذا الوحش سمع صوت فتح النافذة فابتعد عن الباب ووقف على قارعة الطريق فنزلنا لنرميه بالرصاص فعاد الى الباب قبل ان وصلنا اليه وعادت الكلاب الى ضغائها ووقوفها ثم شعر الوحش بنا فاختفى وراء شجرة فحرّشنا الكلاب عليه فلم تتبعه ولو كان كلباً لتبعته لا محالة بل اقامت داخل الباب قافة مرتعدة الفرائص مع انها كانت شرسة يخاف ابناء السبيل شرّها. فاطلقتُ الرصاص على الذئب واصبته في غير مقتل فعوى وفرّ هارباً وهجمت الكلاب عليه لكي تتبعه فلم تتبعه

وفي الشتاء الماضي اتى الذئب وهجم على الكلبة وكاد يدق عنقها وكنا قد اتينا بكلبة اخرى من جبال برينيز تهاجم الذئب والدب فاسرعت وراءه فترك الكلبة الاولى وفرّ هارباً لا يلوي على شيء ولو ادركته لفتكت به ومن ثم لم يعد يزور منزلنا

وكلاب برينيز احمى الكلاب للمنازل وقد رأيتُ كلباً منها يطوف حول منزل اصحابه كل مساء ويمرّ امام جميع الابواب وكلما وصل امام باب يصوت صوتاً مخصوصاً ثم يصعد على اكمة وينبح ويصغي قليلاً ثم ينبح ايضاً وصوت نباحه اذ ذاك حادّ رنّان لا كصوت نباحه اذا رأى غريباً او قابل شخصاً آتياً الى البيت. ويقال ان كثيرين يعرفون من صوت نباح الكلب ما اذا كان ينبح على غريب او قريب

وفي جنوبي فرنسا يكون مع ساقة مركبات الدقيق سوط طويل يضربون به الكلاب ويؤلمونها فترصدهم الكلاب في شوارع الطرق وتنبح عليهم نباحاً ممزوجاً بالفحة والخوف فيسهل على الذين يسمعون هذا النباح مرّة بعد أخرى ان يعلموا ما اذا كان الكلب ينبح على

سائق منهم او على غيره

وعندي الآن كلب سلوقي نبيه جدًّا ولكنه يخاف من الماء خوفًا شديدًا فاذا جلستُ على المائدة للطعام ودخل الغرفة لم يتعذّر عليّ ان اخرجهُ منها حالاً وذلك بان ارمية بقليل من الماء فيهرب من وجهي حالاً ويربض على الباب وهو يراقب حركاتي وسكناتي ويهرُّ تارةً ويصيح اخرى فاذا امسكت كأس الماء يدي نهض على قوائمه واستعد للهرب وكلما رفعت الكاس زاد ابتعادهُ عن الباب وتغير صوته حتّى ان من يراهُ ويسمعهُ وهو لا يراني يستطيع ان يستدل منه على موضع الكأس في يدي

وكنّا في بعض الاحيان نتناول الطعام في الطبقة السفلى من بيتنا ونغلق الباب لكي تبقى الكلاب خارجًا وكان عندنا اربعة منها وامام الباب سرداب طويل فاذا رآنا الكلب المشار اليه دخلنا غرفة الطعام واغلقنا الباب عدا الى السرداب ونبح نباحًا شديدًا كما ينبح اذا اتى غريب ونسبقهُ الكلاب الاخرى الى الباب الخارجي حينئذٍ وهي تنبح وبفتح واحد منا باب غرفة الطعام ليرى على مَن تنبح فيدخل هذا الكلب باب الغرفة خلسةً ثم نغلق الباب ونلتفت فاذا هو داخل الغرفة ومن ثم صرت اعرف انهُ اذا نبحت الكلاب حينما تدخل غرفة المائدة فنباحها حيلة ولا احد بالباب

وقرأت مرةً ان كلبًا من كلاب الصيد كبر في السن وصار يحب القيام بجانب النار وكان معهُ كلاب اخرى افتى منهُ فكانت تسبقهُ الى قرب الموقد الذي يُدفأ بهِ البيت حين عودها من الصيد فاذا رأى منها ذلك خرج ينبح كما ينبح اذا حدث حادث ذو بال فتتبعهُ وتسبقهُ وهي تنبح فيتركها خارجًا ويعود خلسة ويجلس بقرب النار حيث كانت جالسة . وليس العبرة في فطنة هذا الكلب فان فطنة الكلاب مشهورة بل في تكييفهِ صوتهُ على صورة يخدع بها رفاقهُ ويجعلها تحسب ان شرًّا اعرَّهُ وليس هناك شرٌّ

ومعلوم ان الاصوات التي لا تركّب من مقاطع مختلفة تظهر لدى سامعيها واحدةً لا فرق بينها الاّ في الارتفاع والانخفاض والطول والقصر ولكن هذه الاختلافات تكفي احيانًا كثيرة للدلالة على معانٍ مختلفة . والظاهر ان المجاوات يفهم بعضها اصوات بعض بما نسمعهُ فيها من هذه الاختلافات الطفيفة وانني اشبهها بما حدث امامي مرةً في احد المستشفيات . ذلك ان احد الظرفاء كان يمثّل رجلاً سكران وقف امام ينبوع وظن صوت الماء المنصب منهُ صوت الشيء خارجًا من فمهِ . فان هذا الرجل لم يكن ينطق بكلمة سوى كلمة القسَم وكان ينطق بها على اساليب شتى يستدلُّ منها كل مَن يسمعها على فعل السكريه وتدرجهِ من النشو

الى الثمل الى السكر الى الطفح الى السبات الى الصحو وعلى ما اثر في نفسهِ سماعُ صوت الينبوع كأنهُ كان يقول هل شربت هذا المقدار من المسكر فخرج من فمي كالينبوع ولم ينقطع وكان تأثير ذلك يختلف فيهِ باختلاف فعل السكر وتدرجهِ ونحن نستدل على ذلك باختلاف صوت القسم الذي كان ينطق بهِ لا غير

هذا من قبيل لغة الكلاب اما الطيور فاصواتها كثيرة مختلفة كزقاء الديك ونقنقة الدجاجة وهدير الحمام وسجع القمري وصفير النسر وعندلة العندليب ونعيق الغراب . وصوت كل طائر من هذه الطيور يختلف نغمًا وطولاً وقصرًا باختلاف احوالهِ . فزقاء الديك يدلُّ على ساعات الليل وقد يدلُّ على الظفر والغلبة ولهُ صوت خاص اذا وجد بغية كثيرة الطعام تنهمهُ زوجاتهُ ويهرول اليهِ من كل ناحية دلالة على انهُ ناداهنَّ فسمعنهُ وفهمنَ معنى ندائهِ وهذا شأن صوت الدجاجة الرقناء اذا طلبت حضن البيض او نادت فراخها وتغريد الطيور وهي تنادي بعضها بعضًا في اوقات معروفة مألوفة . وقد بلغني ان مربي الطيور في شمالي فرنسا يفتأون عيون الحساسين الذكور ويتيمون بعضها بجانب بعض ويسمعونها صوت الانثى فتجعل تزقزق وتتبارى في مناداتها الى ان يقع بعضها ميتًا من شدَّة الزقزقة . والذي يصبر على الزقزقة اكثر من غيرهِ يعطى صاحبهُ نشانًا وهو عمل بربري يجب ابطالهُ ان لم يكن قد أبطل

ولا يظهر الاختلاف في اصوات الطيور كما يظهر في اصوات الببغاء لانها منقطعة كاصوات الناس . وعندي ببغاء ينطق بكلمات كثيرة نطقًا واضحًا وكان قبلاً عند امرأة كثيرة الصلاة والعبادة وكان يسمعها تكرر عبارة " صلي لاجانا " فتعلمها منها وصار ينطق بها نطقًا واضحًا حتَّى انها كانت تسمعهُ احيانًا فتظن ان في البيت شخصًا يصلي . واذا جاع نادى بكلام ترجمتهُ ياكوكي المسكين . واذا عطش نادى بكلام آخر ترجمتهُ يا جرذي المسكين فيفهم كل من في البيت مرادهُ ولو لم توضع هذه الكلمات لهذه المعاني في لغة الفرنسيس . وهو يحب التفاح فكلما دنوت منهُ ووضعت يدي في جيبي لاناولهُ تفاحةً صرخ قائلاً " ياكوكو المسكين " بنغم التوسل . وحبهُ للسكَّر شديد فاذا مضى مدة طويلة ولم اطعمهُ سكرًا ثم اتيتهُ بقطعة منهُ وثب اليها ليلتقطها لشدة ما يعتريهِ من الفرح وكانهُ ينتبه حينئذٍ الى ما فرط منهُ فيحجم عنها قليلاً وينادي بالجملة التي يتلفظ بها عادة قبلما يأخذ قطعة السكر وهي "خذ ياكوكي المسكين" بصوت رخيم يدل على الرضى والشكر وكلما اكل منها شيئًا اظهر سرورهُ بقولهِ آه آه . وهذا الببغاء يحب احد الاولاد حبًّا شديدًا فاذا رآهُ حمل يمشي في قفصهِ ويدير دولابًا فيهِ

ويبسط ذنبهُ ويزبئرُ واذا ابطأ الولد ولم يدنُ منهُ احمرّت عيناهُ واظهر الغيظ واما اذا دنا منهُ وبشّ في وجههِ ابرقت عيناهُ وناداهُ قائلاً "جاكو" ولفظ هذه الكلمة بصوت رخيم لا كما يلفظها اذا كان جائعًا

وليس العبرة في الكلمة التي يلفظها بل في غنة الصوت لانهُ لو علّم كلمة أخرى ليلفظها في هذا المقام للفظها ولم يلفظ هذه . وهو مثل كل نوعهِ يكرهُ العزلة والانفراد فني ذات يوم خرجنا كنا من البيت الى البستان الذي بجانبهِ وبقي وحدهُ فاستوحش وجعل يتلو الكلمات التي يعرفها واحدةً واحدةً ويكرر تلاوتها بانغام مختلفة كانهُ يريد ان يسلي نفسهُ بنفسهِ فدخلتُ الغرفة التي فيها قفصهُ خلسة ووقفتُ حيث لا يراني وكانهُ سمع صوت وقع قدميَّ فجعل ينادي بكلمة جاكو (وهي اسمهُ) بصوت منخفض رخيم ولما رأى انني لم اجبهُ ولم انتبه اليهِ اخذ يكرر الكلمة بصوت اعلى فاعلى وانا ساكت لا ابدي حراكًا فعيل صبرهُ وجعل ينادي بصوت اليأس حتى سمعهُ كلُّ من في البستان واسرعوا اليهِ فلما رآهم حولهُ سكن روعهُ وجعل ينطق باسمهِ فقط بصوت الرضى والسرور

افلا يظهر من ذلك جليًّا انهُ لما رأى نفسهُ منفردًا جعل ينطق بالكلمات التي يعرفها ليسلي نفسهُ ثم لما سمع صوت قدميَّ جعل ينادي وكان يرفع صوتهُ رويدًا رويدًا كمن ينادي صاحبهُ ويرفع صوتهُ كلما رآهُ بغير منتبه الى ان نبّه كل اهل البيت اليهِ

وعُلّم ببغاء القسّ بلغة العامّة في جنوبي فرنسا وكان من عادة صاحبهِ ان يسقيهُ قليلاً من القهوة كلما جلس للغداء . وذات يوم شُغل عنهُ واضاف الى القهوة قليلاً من الكنياك ثم انتبه اليهِ وسقاهُ ملعقة من القهوة ممزوجة بالكنياك فلما ذاقها استكرهَ طعمها واقسم بالقسم الذي تعلمهُ في جنوبي فرنسا حتّى اضحك كل مَن على المائدة فكأن الكراهة التي شعر بها حينما ذاق الكنياك ذكّرتهُ بهذا القسَم الذي كان ينطق بهِ وقت الاستكراهِ فنطق بهِ .

والببغاء الذي عندي مكسور الجناح فاذا ضرب احدٌ اسفل قفصهِ ارتعدت فرائصهُ لانهُ لا يستطيع ان يطير ويخشى السقوط . واذا رأى طائرًا في السماء خاف ايضًا وبسط رأسهُ وجعل يصيح ولا يكفُّ عن الصياح ما دام الطائر على مرأى منهُ . واذا اظلم الليل وادخلناهُ الى الغرفة التي ينام فيها ورأى ظلهُ على الحائط خاف ايضًا وصاح بصوت ضعيف ولا يسكن روعهُ حتّى نطفئ المصباح فلا يعود يرى ظلهُ

وهو مثل غيرهِ من انواع الببغاء يحب البعض ويكرهُ البعض الآخر وقد يحب الشخص الواحد ثم يكرههُ ويحب من كان يكرههُ اولاً والذي يحبهُ يسمح لهُ ان يدنو منهُ ويلاعبهُ

والذي يكرهه يصيح عليه باصوات الغضب . ويعرف الذي يحبه ولو غاب عنه اياماً كثيرة ويرحب به حالما يراه

واذا جاء وقت الطعام وكان قطة خارجاً اخذ ينادي ويصيح الى ان تنتبه اليه . وفي الغالب اخرج اليه بقليل من الناكهة فيسرّ ويتغير صوته فيصير موسيقياً مزوجاً بالتحك ويستدل من ذلك كله ان العجماوات تخاطب وتعبّر عما في نفوسها بتغيير نغم اصواتها . ولا يمكننا ان ندرك معانيها ما لم نراقبها في كل احوالها ونعلّق هذه الاصوات بالاحوال التي تنطق بها فيها . واصوات البغاء منها اسهل علينا فهماً لانها مقطعية ذات معان فيسهل علينا تعليقها بالمعاني الاخرى التي يدلّ البغاء عليها . ولا بدّ من متابعة الانتباه الى اصوات الحيوانات واطوارها ومقابلة بعضها ببعض لعلنا نصل الى معرفة معانيها واكتشاف لغاتها التي نتفاهم بها

هذه خلاصة ما اوردهُ المسيو ده لاكاز دوتيه في الرفو سبنتنيك ولنا على ذلك كلام نبسطه في فرصة أخرى

المناظرة والمراسلة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب فتحناهُ ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان . ولكنّ العهدة في ما يدرج فيهِ على اصحابهِ فنحن براء منهُ كلهِ . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ونراعي في الادراج وعدمهِ ما يأتي :

(١) المناظر والنظير مشتقّان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيرهِ عظيماً كان المعترف باغلاطهِ اعظم

(٣) خير الكلام ما قلّ ودلّ . فالمقالات الوافية مع الايجاز تستختار على المطوّلة

تحقيق الكلام في جواب الاستفهام

قد ذكرتُ في آخر جوابي عن استفهام حضرة الفاضل جبران افندي فوتيه انهُ لا يتأتى تخريج النصب في نحو طفتُ البيتَ وذهبتُ الشام وتوجهتُ مكة على الظرفية المكانية لان هذه اسماء امكنة مختصّة ولانها ليست على تقدير في لان الطواف لم يقع في البيت وكذا الباقي وانهُ انما يصح نصب اسم المكان المختص على الظرفية شذوذاً مع ثلاثة افعال فقط دَخَلَ وَسَكَنَ ونَزَلَ

فنظر حضرتهُ في ذلك بان من النحاة مَن جعل المنصوب في نحو ذهبتُ الشام وتوجهت